

يعتبر الشيخ السعيد بونقوجيرث (المدعو البيباني)، أحد قلامذة عبد الحميد بن باديس الذين ساهموا في نشر الفكر الإسلامي في الجزائر وفي الأراضي الفرنسية، عن طريق التعليم، والكتابة الصحفية، واللقاء الحضرات. كما أنه لم يتخلف عن الالتحاق بالثورة الجزائرية.



بقلم: محمد الرقابي فراد

نبذة عن حياته (1)
ولد الشيخ السعيد البيباني يوم 11 نوفمبر 1908 بقرية سيدي إبراهيم (ولاية برج بوعريج)، من أسرة متواضعة، اشتغل أبوه أصغر المولود بالفلاحة والتجارة. ورغم رقة حال الأب فقد عقد العزم على بذل ما في وسعه من أجل تعليم ابنه، وبالفعل فقد حفظ القرآن في سن الرابعة عشرة بمسقط رأسه، ثم أرسله والده إلى المدرسة الابتدائية الفرنسية بقرية بوجليل، أين تعلم كتابة وقراءة اللغة الفرنسية، وعقب ذلك توجه إلى زاوية سيدي يوداود بناحية أقيو (ولاية بجاية)، فدرس فيها العلوم الشرعية وعلوم اللغة، زار خلال هذه الفترة عدة زوايا لعل أهمها زاوية سيدي عبد الرحمن الليلوي بولاية تيزي وزو. وبعد أن أكمل دراسته في الزاوية سنة 1928، قرر السفر إلى قسنطينة لمواصلة دراسته على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس، ولكنه أصيب بوعكة صحية أثناء مروره بزوايا الحملاوي فعاد إلى قريته مريضا. وبعد أن تعافى من المرض، كلف بالإمامة وتدریس القرآن بمسجد قريته لمدة عامين، قام خلالها بإصلاحات تروية انكسبت إيجابا على المتعلمين. وكتب له أن يزور مدينة الجزائر سنة 1930 حينما كانت فرنسا بصدد الاحتفال بمرور قرن على احتلال أرض الجزائر، ويدل أن يصاب بالإنهيار عظيمة فرنسا كما كان يتمنى الاستعمار، فقد حضر بالصدفة محاضرة ألقاها الأستاذ الطيب العقبي بمقر نادي الترقى بساحة الشهداء الحالية، فأعجب بفكره الإصلاحية، وقرن الانضمام تحت لواء جمعية العلماء من أجل الحفاظ على الشخصية الجزائرية المسلمة. ولم يتسن له الالتحاق بمدرسة ابن باديس بقسنطينة لمزاولة دراسته إلا سنة 1935، وبعد الامتحان وجه إلى السنة الثالثة، واستقرت دراسته سنتين كاملتين.

نشأته في فرنسا
واعتبارا لمستواه الجيد فقد اختير ليكون عضوا ضمن اللجنة التي أرسلتها جمعية العلماء إلى باريس سنة 1937، بقيادة فضيل الورثاني، من أجل تأسيس فروع لها، قصد حماية المهاجرين الجزائريين من خطر الفرنسية، وتداعيات القرية. وساهم في تأسيس جمعية حياة البيبان التي ترأسها بن صيف الله بن سليمان، للإشراف على المهاجرين المنتمين إلى منطقتة سيدي إبراهيم وتوعيتهم اجتماعيا وسياسيا، ومكث هناك إلى حين اندلاع الحرب العالمية الثانية سنة 1939.

فترة الحرب العالمية الثانية
تعطل نشاط جمعية العلماء خلال الحرب العالمية الثانية، فعاد الشيخ السعيد البيباني إلى قريته واشتغل بالنشاط الفلاحي، وتقديم دروس الوعظ وعقد الصلح بين الأطراف المتخاصمة، ونشط سريا مع أعضاء الحركة الإصلاحية، ومع المهاجرين، أثناء عودتهم إلى أرض الوطن، لتدريس المستجندات السيامية. هذا ولم يكن نشاطه الوطني الكفيف الذي أداه في باريس خافيا على عيون الإدارة الفرنسية، لذا حاولت -بمجرد عودته- تفتيق تهمة الانتماء إلى الحرب الشيوعي، لاذع عن في السجن. وعندما قدم إلى محكمة المنصورة، لادع عن نفسه بشجاعته، فأخبر رئيس المحكمة أنه لا علاقة له

جهود الشيخ السعيد البيباني الإصلاحية

أفريل سنة 1958 إلى مدينة جدة كمساعد للشيخ العباس بن الحسين ممثل الحكومة المؤقتة للثورة الجزائرية، إلى أن تم استعادته سنة 1964. وبعد عودته إلى الجزائر عاد إلى مهنة التعليم التي شغل عليها، مدرسا بمدرسة أشبال الثورة بالقليعة، ومكث بها إلى أن أحيل إلى التقاعد سنة 1975، ولكنه لم ينعم به إذ فارق الحياة سنة 1976، ودفن بمسقط رأسه.

تأرجح من مقالاته

لم يتوان الشيخ السعيد البيباني عن استعمال أساليب نضالية مختلفة، من أجل بعث الشخصية الوطنية، ومنها الكتابة الصحفية بهدف إلى توير الرأي العام، ومساعدة الجماهير على تجاوز ذهنية الانحطاط، والأخذ بيدها للتوجه نحو عالم المعرفة والرحب، والصحة الدينية، باعتبارهما سلاحا قويا يساعد على مقارعة الاستعمار. وترك عدة مقالات، كان بعضها عبارة عن تعقيل نشاطات فروع جمعية العلماء بفرنسا، نذكر في هذا السياق -على سبيل المثال- ما كتبه عن المؤتمر السادس لجمعية التهذيب بباريس جاء فيه: يوم الأحد 14 أوت 1938، على الساعة الثانية بعد الزوال، انعقد المؤتمر السادس لجمعية التهذيب بنادي أفرغيلي (سان)، وحضره ممثلو النوادي الباريسية التهذبية جميعا، وتداول الحديث فيه بضعة عشر مندوبا، كل منهم قدم آراء صائبة واقتراحات مهمة فيما يخص حركة الجمعية وسيورها ونظمها. إن مائة وعشرين مثلا النوادي المختلفة في مؤتمراتهم السادس المنعقد بنادي أفرغيلي (باريس)، بحثوا بحثا دقيقا في شؤون الجمعية، وبصورة خاصة مسألة ماليتها، ولم يعيدوا فيها أدنى خلل يستوجب ولو مجرد وهم في نظامها... (3).

وكتب مقالا آخر بعنوان المظاهر الإسلامية العربية بباريس وهو عبارة عن تخطية لزيارة الشيخ السعيد الصالحي إلى فرنسا جاء فيه قوله: ما كاد ينتشر النبا بالنوادي التهذبية بأهم العواصم باريس بمجيء الشاب الناهض المحلل الأستاذ الشيخ سعيد صالح، العضو الإداري لجمعية العلماء، والمدرس الحر بمسجد فترات، حتى توافد رجال وتلاميذة جمعية التهذيب -حرسها الله- إلى محطلة "ليون" لملاقاة أستاذهم الفاضل الذي كان من أول المؤسسين لهذه النهضة الإسلامية، التي يتمتع بها أبناء الإسلام بالديار الفرنسية، في مظهر جليل ومشهد عظيم -يا له من مشهد- تجلت فيه روح العروبة الصادقة، وبدا فيه شعور بيقظة الأمة الجزائرية العميق. وما كاد يستقر الأستاذ بنزله المهيب، له، حتى قررت الجمعية أن تعقد عدة اجتماعات بنواديها المفتوحة بباريس... (4).

وفي مقال آخر لخص محاضراته التي ألقاها بمدينة مرسيليا، قارن فيها بين دور المهاجرين العرب الأيغالي في أمريكا، وبين دور المهاجرين الجزائريين السليلي في فرنسا، جاء فيه قوله: "... وكان موضوعها: ن والقلم وما يسطرون الخ وفي الأخير جعلت موازنة بيننا نحن معشر الجزائريين المهاجرين إلى أرض أروبا وإخواننا الأبطال من أثر حسن هاجروا إلى أمريكا. وما كان لأولئك الأبطال من أثر حسن يحفظه التاريخ والأجيال، ومن تبييضهم لوجه الإسلام لدى الأجانب، حتى اعتقلهم الأجانب في هذا الدين ودخلوا أفرانجا ولا يزالون يدخلون إليه في كل حين. وما كان لنا نحن الجزائريين من أثر سيئ يحفظه التاريخ والأجيال، إن لم نبادر لإصلاح القلط ودرء الفساد، فبذلك نجني على أنفسنا وجنسياتنا بل وعلى الإنسانية جمعاء... (5)

رأيه في عادة الزردة (لوزيعة)

اشتهرت بلاد الزاوية (القبائل) بتخليط "الزردة" المعروفة محليا باسم لوزيعة أو ثيمشرطه وهي في

جوهرها عادة إيجابية، لها دلالات اجتماعية عديدة كتكريس التآزر والتضامن والاحتفال بالأعياد الدينية والمواسم الضالحية عن طريق ذبح عدد معين من الحيوانات (ضأن أو بقرة) يتناسب مع حجم سكان القرية، لإشاعة الفرح والحيوي في أوساطهم. وهناك أنواع عديدة من لوزيعة، فقد يوزع اللحم مجانا على الناس عندما يتبرع البعض بالحيوان أو بمبالغ مالية لشراؤها، أو قد يتفق سكان القرية على شراء الحيوانات، وفي الحالة تدفع كل عائلة نصيبا من المال يتناسب مع عدد أسهم اللحم التي تأخذها كل عائلة. وأشار الشيخ السعيد البيباني إلى هذا النوع في أشكال لوزيعة (الزردة)، لذا لم يرفضها لذاتها، بل رفض بعض أشكالها التي لا تتسجم مع مقاصد الشرع. وهذه مقتطعات من مقاله: "... إلى أهل العلم ورجال الدين وجماعة أولاد سيدي إبراهيم، المسؤولين عن قريتنا دنيا وأخرى المحترمين.

السلام عليكم وعبونه وبركاته. ويعد أيها الإخوة الأفاضل لا داعي للقول بأنكم تعلمون يقينا، بأن كل لوم يوجه إلى أبناء قريتنا أمم الله وأمم العباد، فهو موجه إلينا معشر العلماء قبل كل أحد... هذا وقد بلغني بكل أسف، أن القرية كلها في هذه الأيام في هرج ومرج عن الزردة أو لوزيعة أو لا أدري كيف يسمىها. وكنت ملازما لنداري هذه الأيام -كما تعلمون- استرجاعا للراحة، ولكثرة تعبي في الشهور الفارطة، ولا سيما أيام كتبت بباريس. ولكوني سعيما من الحديث عن مثل هذه المسائل التي فرغنا منها منذ أمد بعيد.

ولقد كثر الكلام عليها (لوزيعة) حتى صارت معلومة عند العامة فضلا عن الخاصة، وفي هذين اليومين الأخيرين كثر السؤال علي من أبناء القرية عن شأن هذه اللوزيعة، ليجوز لكلها أم يحرم؟ وإن كانوا كما أظن يعملون قبل اليوم قولي وقول العلماء في مثل هذه الزردة -كما أظن- أنهم لا يجهلون قول الله في الصدقة ومن الأحق بها، وقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المتصدق الذي يعود في صدقته، والتشديد الذي شدد عليه، حتى وصفه بالكلب الذي يعود في قبيله بل حتى حرم على المتصدق أن يشتري صدقته بماله الخاص... (6)

ثم سبب في التركيز على حق الفقراء في الصدقات دون الأغنياء، وفضل صرف الأموال التي تجمع في الأعمال الخيرية التي تعود بالنفع على المجتمع، كبناء المدارس وإرسال العيانت الطلابية إلى الخارج. وفي الأخير أفرح أن تكرم هذه الشخصية المشتمة بالتفضحية ونكران الذات، التي جمعت بين الفكر الإصلاحية، والنضال السياسي الوطني، بإطلاق اسمه - على الأقل - على مؤسسة تروية أو ثقافية، وهذا من باب العرفان بما قدمه لوطنه المقدس من خدمات وجلائل الأعمال طيلة حياته، دون أن ينتظر جزاء ولا شكورا.

الهوامش

- 1-Ali Boutkedjirt, La vie de Cheikh Saïd El-Bibani, (el_bibani.blogspot.com)
- 2- محمد الحسن فضاض، من اعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، منشورات وزارة الثقافة، 2002، ص133
- 3- البصائر، المجموعة الأولى، السنة الثالثة، العدد 130، بتاريخ 9 سبتمبر 1938.
- 4- البصائر، المجموعة الأولى، السنة الثالثة، العدد 131، بتاريخ 19 سبتمبر 1938.
- 5- البصائر، المجموعة الأولى، السنة الثالثة، العدد 139، بتاريخ 11 نوفمبر 1938.
- 6- البصائر، المجموعة الأولى، السنة الرابعة، العدد 146، بتاريخ 30 ديسمبر 1938.